مجلـــة العلـــوم التربـــوية والدراســـات الإنســـانيـــة
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)

صناعة النسق الثقافي الإيجابي في مقالات مي زيادة(*)

أ.د/ أحمد قاسم أسحم
أستاذ الأدب والنقد الحديث آداب جامعة تعز

*) تاريخ تسليم البحث 2/10/2024 تاريخ قبوله للنشر 30/10/2024
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

صناعة النسق الثقافي الإيجابي في مقالات مي زيادة

أ.د/ أحمد قاسم أسحم
أستاذ الأدب والنقد الحديث آداب جامعة تعز

الملخص

حاول هذا البحث استنباط الأنساق الثقافية الإيجابية في مقالات الكاتبة مي زيادة وكيفية صناعتها، وقد توصل إلى أن مقالاتها تزخر بالكثير من الأنساق الثقافية الإيجابية؛ وبذلك يكون البحث قد قدم رؤية جديدة في مجال النقد الثقافي، وهي أن الأنساق الثقافية ليست دائمًا مسيئة وسلبية، كما ذهب إلى ذلك رائد هذا النقد الدكتور عبدالله الغذامي ومن سايره من النقاد العرب، وإنما هناك أيضًا في الأدب شعره ونثره أنساق ثقافية مضمرة إيجابية.

الكلمات المفتاحية: النسق الثقافي الإيجابي، مقالات، مي زيادة.

Creating a positive cultural context in May Ziadeh’s articles

Dr. Ahmed Qasim Asham
Professor of Modern Literature and Criticism, Faculty of Arts, Taiz University

Abstract

“Constructing a Positive Cultural Paradigm in the Essays of May Ziadeh” is an academic work by Professor Ahmed Qasem Asham, Professor of Modern Literature and Criticism in the Department of Arabic Language at the Faculty of Arts, Taiz University

This research aimed to derive positive cultural patterns in the articles of the writer May Ziadeh and analyzes how they are crafted. The study concluded that her articles are rich with numerous positive cultural patterns. Thus, this research presents a new perspective in the field of cultural criticism, suggesting that cultural patterns are not always negative and harmful, as stated by Dr. Abdullah Al-Ghadhami, a pioneer in this field, and other Arab critics who followed his lead. Instead, there are also positive cultural patterns present in both poetry and prose.

Keywords: Positive Cultural Paradigm, Essays, May Ziadeh

المقدمة:

يهدف هذا البحث إلى كشف النسق الثقافي الإيجابي في مقالات الكاتبة المبدعة مي زيادة عن طريق الأسلوب الجمالي المستند إلى الوقائع والحجج الدامغة، وتبين لنا من قراءتنا الأولى لمقالاتها حرص الكاتبة على التركيز على الأنساق الإيجابية المعرّية للأنساق السلبية التي تطفح بها الثقافة العربية، ومن أجل الوصول إلى تجسيد صناعة النسق الايجابي في مقالاتها، تم تقسيم البحث إلى تمهيد تناول فيه الباحث أمورًا عدة حول النقد الثقافي، ثم تناول بالدراسة عن طريق المنهج الاستنباطي ومنهج التحليل الأنساق الإيجابية في مقالاتها.

تمهيد:

سوف نتناول في التمهيد ثلاثة أمور هي: مفهوم النسق الثقافي، والنسق الثقافي في رؤية الغذامي، والنسق الثقافي ومقالات مي زيادة على النحو الآتي:

مفهوم النسق الثقافي:

النسق الثقافي هو مجموعة قيم وأفكار ومعتقدات تعمل على تحقيق التماسك بين شخصية الفرد والمجتمع[١]، ويعد النسق الثقافي من البديهات التي تفرضها الثقافة على الأمة، وقد يكون النسق إيجابيًا مثل نسق الكرم ونسق الشجاعة ونسق النجدة، وقد يكون سلبيًا مثل نسق الفحولة الذي يسعى إلى التهميش والطبقية والعنف، والنسق في أصله أشبه بالاتجاه النفسي يُغرس عن طريق جماليات الأدب.

النسق الثقافي في رؤية الغذامي:

لا شك أن عمل الغذامي عمل جليل في تثبيت أركان النقد الثقافي في النقد الحديث، ولكن لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، ولكل عالم هفوة كما يقولون؛ خصوصًا إذا كان عمله غير مسبوق، وهذه الكبوة تتجلى بشكل واضح في أسلوب التعميم الذي أخذ به في مؤلفاته التي تدور حول النقد الثقافي؛ من ذلك: جعله النسق الثقافي شيئًا رجيمًا؛ ولا يحبذ الباحث تعميم الغذامي هذا، وجعل النسق الثقافي شيئًا رجيمًا في كل أحواله، وبالرغم من قوة الأدلة المقنعة التي بثها الغذامي لأثبات هذه الرؤية، إلا أننا لا يمكن أن نأخذ رؤيته إلا بحذر شديد؛ فليس تعصب العرب للفظ دون المعنى يعني إيثارًا للذكورة دون الأنوثة كما يذهب، ولا يعني أيضًا أن الشعر وسيلة كسب وشحاذة، ولا يعني قوله إن القيم وخصوصًا قيمة الكرم قد تغيرت عما كانت عليه، فكلامه لا يأخذ كله ولا يرفض كله، ففي الشعر فعلًا أنساق تخريبية، ولكن فيه أيضًا أنساق إيجابية بناءة.

وأكاد أزعم أن كتابه "النقد الثقافي" فيه أنساق تخريبية وأخرى بناءة؛ ومن هذه الأنساق التخريبية الاتهام المبالغ فيه للنقد الأدبي بأنه أسهم قديمًا وحديثًا في تعزيز النسق وتسويقه[٢]؛ صحيح هذا، لكنه أيضًا أسهم في تعزيز النسق الجيد الصالح الذي تم به غرس قيم إيجابية في المجتمعات.

إن الغذامي يريدنا أن نقتل المجاز والجمال، وإذا حاولنا صياغة جمال ما من اللغة فهو "مشروع لانتهاك اللغة والعالم وتحويل اللغة إلى خادمة تنصاع لمراد السيد الشاعر"[٣]، أليس في هذا الكلام جمل نسقيه مضمرة تحاول أن نركن اللغة جانبًا، وكأنها امرأة، وليست امرأة عادية بل امرأة أسطورية لا يحل لنا الاقتراب منها أبداً!

ويعمم الغذامي أن كل جميل شعري هو قبيح ثقافيًا[٤]حيث يقول: "هذه هي لعنة الشعر حينما يكون جماليًا فحسب أو أنيقًا فحسب، ومن تحت الأناقة تكمن البشاعة الإنسانية التي تأسست أصلاً في الذهن الثقافي"[٥]!

ويقول: "مشكلتنا أمام شعر كهذا أننا استسلمنا لقاعدة نقدية (بلاغية) ذهبية تمنعنا النظر في عيوب الشعر"[٦]، ونسي الغذامي أن الشعر القديم قدم قيما إنسانية، وأنه كما هو موجود عند العرب فهو في الغرب والشرق، وفي كل زمان ومكان، وأن الشعر لابد منه لحياة الإنسان؛ فهو رافد للحياة وليس كما قال: "مؤامرة جماعية ضد العقل والذوق تقبلناها وخضعنا لها، وكأنها هي صنم صنعناه"[٧]. إن أقوال الغذامي لا تصدق إلا على الجانب السلبي من الشعر الذي يحمل أنساقًا ضمنية مسيئة؛ فليس كل شعر نزار– مثلًا– قائم على نسق تقليدي قبيح؛ فشعره السياسي شعر جميل، استطاع أن يعري لنا القيادات التي تحكم العالم العربي، واستطاع أن يتنبأ بمصيرهم السيء.

كما أن الغذامي ركز في كتابه على الحكم على الشعراء بالرجعية من خلال أن شعرهم يقوم على فحولة الأنا، وما تتضمنه من تعالي الذات وإلغاء الأخر[٨]، ونسي أو تناسى أشياء أخرى لها علاقة بالجمال والفن والقيم طرحها الشعراء، فليس من المعقول – وفق تعميمه– أن يتساوى عمرو بن كلثوم وعمر بن أبي ربيعه وأبو تمام والمتنبي والسياب ونزار وأدونيس في انتاج أنساق ثقافية مسيئة فقط. فكل واحد من هؤلاء ترك بصمتين بصمة إيجابية وبصمة سلبية. لذا كل كلامه مبني على نسق الإلغاء للشعر واللغة. كذلك ليس صحيحًا أن أدونيس مثل أبي تمام فكلاهما له بصمة خاصة وفكر خاص واتجاه خاص، لكن الغذامي يبني حكمه بناء على نسق الفحولية!!

والغذامي يحاول إقناعنا دائمًا عندما يتنبه لاعتراضنا لتعميمه فيقول: "ليس من الصحيح أن نتصور أن هذه المقولات مجرد تعبيرات شعرية مجازيه"[٩] معلقًا على مقطع شعري لأدونيس، وهي فعلًا تعبيرات شعرية مجازية، ويتابع القول:" لأسباب منها أن هذه الجمل ليست من مبتكرات أدونيس، وهي ليست سوى جمل مكررة من شعراء سبقوا أدونيس إليها عن اختراع الفحل"[١٠]، فيضعنا في دوامة فهو يعترف بالمجاز كما قال: "إن الخلل الثقافي في النقد الأدبي الخالص هو في عدم تمييزه بين الجمالي المجازي من جهة، وبين العلامات الثقافية النسقية من جهة ثانية"[١١]، أليست هذه مغالطة؟ فالغذامي رافض اللغة الجمالية والمجازية، وهي عنده غطاء لتمرير أنساق ثقافية كما قال ذلك في مواضع عدة[١٢]، وإلا أين أمثلته التطبيقية المميزة للنوعين؟ إنه دائمًا يردد "ليست مجازية" ولم يضعنا على حدود فاصلة بين المجاز والحقيقة في رؤيته، وقد نسف كل مجازات الشعراء؛ فقد صور لنا الشعراء مسلوبي الإدارة يسيرون على نمط واحد لا يتغير، وصور لنا الشاعر مجرد حامل أنساق مسيئة، وصور لنا البلاغة مجرد وسيلة تخدير تجعلنا عبيدًا للأنساق، بل صورنا نحن أننا نعمل على أذية أنفسنا؛ لأننا نتذوق هذا الشعر وهذه البلاغة! وبذلك يتحول إلى فحل أعظم من الفحول الذين نقدهم؛ لأنه صار الناقد العليم الوحيد والفاهم الوحيد والعبقري الفريد والكاشف الوحيد، ليس في الأرض كلها من يفهم أكثر مما يفهم، وهو المالك الوحيد للغة يستغلها كما يريد، ولا يريد أحدًا أن يستغلها، أليس ما يصنعه الغذامي في كتابه نوعًا من الفحولة في أقصى وأعمق معناها النافية لكل شيء إلا ما يقوله هو.

مشكلة الغذامي أنه متعصب للمنطقي والعقلاني، ويريد أن يفرض ذلك على الشعر والبلاغة، وقد تكرر إعلانه ذلك في كثير من المواضع من كتابه منها قوله "نجد عند أدونيس عداءً خاصًا وهو عداء نسقي لكل ما هو منطقي وعقلاني"[١٣].

إذن كتاب الغذامي يثير تساؤلات عدة تحتاج إلى إجابات محددة منها: ما هو الجمال في نظر مؤلفه؟ وما الشعر؟ وما الحداثة؟ وما أغراض الشعر وما وظيفته؟ وما علاقة الشعر بالمجاز والخيال؟ وما البلاغة؟ وما الأصولية؟ وما علاقته بالعقل والمنطق؟ وما الانجاز النوعي المراد من الشعراء والشعر؟ الذين يمكن به تغيير الأنساق الثقافية؟

لقد بث هذه المصطلحات كثيرًا في كتابه ولا يضعنا أمام ماذا تعني عنده؟ وما معنى العمى الثقافي الذي نجا منه وحده؟ الغذامي يجعل الجميع تحت النسق القبيح، الشعراء وجمهورهم[١٤] إلا هو. إن خير ما يصدق على الغذامي قوله ناقدا أدونيس حين تحدث أدونيس عن العرب وفشلهم، ونجاحهم فقط الهامشي في التجربة الصوفية والتجربة الشعرية، قول الغذامي معلقًا ناقدًا: "كلام أو اعتراف شجاع وصادق ولا شك، غير أنه كلام متلبس بالداء ذاته، مما يجعله لا يرى العلة ويقف عند حدود الأعراض وعلامات الداء"[١٥].

النسق الثقافي ومقالات مي زيادة[١٦]:

الكاتبة مي في مقالاتها حاولت أن تغرس أنساقًا ثقافية إيجابية، عن طريق محاولة إرشاد القارئ إلى التخلص من بعض الأنساق السلبية، والدعوة إلى إحلال نسق إيجابي مكان نسق سلبي. فمثلاً تكشف لنا نسقًا سلبيًا، كان يدين به الغرب حول شخصية العربي، وهو في قولها في مقالة "حياة اللغات وموتها ولماذا تبقى العربية حية؟! "من كتاب" بين الجزر والمد": "عرفت أوروبا العرب بفتوحاتهم الواسعة، ولم تكن لتصدق في بادئ الأمر أن سكان البادية يحسنون شيئاً غير النهب والسلب والتخريب"[١٧]. فهذا نسق ثقافي سلبي كان منتشرًا في أوروبا وما زال إلى اليوم مسيطرًا على كثير من أبناء الغرب، ماعدا القلة القليلة الذين استطاعوا بناء على معايشة للمسلمين أن يغيروا نسقهم الثقافي السابق[١٨]، تقول مي عن ذلك وكيف غيرت أوروبا أو البعض نسقهم في نفس المقالة: "على أنها ألفت (أي أوروبا) مع الزمن وجودهم في الأندلس، ولما أن رأت إسبانيا مستمتعة بعيش رغيد في أمان وسلام، أرغم أهلها على الإقرار بأن العرب بارعون في فنون السلم، كما أنهم متفوقون في فنون الحرب"[١٩]، فهذا مثال واضح على قدرة الكاتبة على صناعة النسق الإيجابي.

ووظيفة إنتاج وصناعة النسق الثقافي في كتابة مي زيادة، هو محاولة جعْله شيئًا بدهيًا في ذهن القارئ، واتجاهًا نفسيًا يدفعه ليمارسه سلوكًا في الواقع.

الأنساق الثقافية الإيجابية في مقالات مي زيادة:

تعد الأنساق الثقافية التي هدفها التغيير الإيجابي من أهم الأنساق التي حاولت الكاتبة مي زيادة صناعتها وإنتاجها؛ رغبة في أن تصير واقعًا ملموسًا في حياة القارئ، ومن أهم هذه الأنساق ما يأتي:

١- الدعوة إلى الحرية من العادات

يظهر هذا النسق جليًا في نماذج كثيرة من مقالاتها، ففي مقال بعنوان: "عام سعيد" من كتاب "سوانح فتاة" نراها تقول متعجبة في نبرة توبيخ للمجتمع: "ما أكثرها عادات تقيدنا في جميع الأحوال، فتجعلنا من المهد إلى اللحد عبيداً نتمرد عليها، ثم ننفذ أحكامها مرغمين"[٢٠]. فالكاتبة في هذه العبارة تصنع نسقًا ثقافيًا إيجابيًا يحل مكان نسق ثقافي سلبي هو الخضوع للعادات والتقاليد، وتحاول الكاتبة أن تغرسه نسقًا يدعو إلى الحرية من خلال أساليب فنية بلاغية هي التنكير والمبالغة في شدة تمكن العادات من الناس، فالتنكير ل(عادات) يجعلها في تصور

القارئ ذات كثرة تحيط به في حياته مثل الأخطبوط، والمبالغة في جعل هذه العادات مقام السيد المطاع الذي يقيد الإنسان منذ الطفولة حتى النهاية، من المهد إلى اللحد، ومهما حاول الإنسان أن يفلت من قيده لا يستطيع، هذه المبالغة الشديدة تجسد صعوبة الإفلات من سطوة العادات، وهي تمثل مجموعة من الأنساق الاجتماعية السلبية التي تصنعها الثقافة، هي وراء ذل الإنسان وخضوعه؛ وبخاصة في المجال السياسي والاجتماعي، ومن ثم فإن الكاتبة تغرس في ذهن وتصور القارئ نسقًا ثقافيًا جديدًا وهو نسق الحرية، برجوع الإنسان إلى نفسه ليتخلص من مأساته، فتقول عقب بيانها لخطورة نسق العادات من مقالة "عام سعيد": "ويصح لكلٍ أن يطرح على نفسه هذا السؤال: أتكون هذه الحياة (حياتي) حقيقة، وأنا فيها خاضع لعادات واصطلاحات، أسخر بها في خلوتي، ويمجها ذوقي، وينبذها منطقي، ثم أعود فأتمشى على نصوصها أمام البشر"(٢١).

إنها تدفع الإنسان القارئ لأن يحل نسق الحرية مكان نسق العبودية في حياته، تدعوه عن طريق استفهام التوبيخ والتعجب والإنكار إلى إنكار نسق العبودية لهذه العادات، وأنه لا يتناسب وحياة الأحرار من الناس، وإنما يتناسب وحياة العبيد من البشر، وحتى تعمق أثر نسق الحرية في ذات القارئ استعملت الصور البلاغية من مثل قولها في مقالة "عيد سعيد": "أرى أن أخبار الأفراح التي يطنطن بها الناس كالنواقيس، ومظاهر الحداد التي ينشرونها كالإعلام، إنما هي بقايا همجية قديمة من نوع تلك العادة التي تقضي بحرق المرأة الهندية حية قرب جثة زوجها"(٢٢)، فالكاتبة تستعين بالصورة البلاغية التشبيهية، وبعادات الشعوب المسيئة، لإقناع القارئ بمدى شيوع أثر النسق السلبي القائم على تشجيع العادات الزائفة في المجتمع، ثم تكشف للقارئ أصل هذا النسق في أنه بقايا همجية قديمة، وهي تعرية واضحة للنسق الذي صار ينظر إليه على أنه نسق حضاري، فإذا هو نسق ثقافي همجي، كل ذلك يؤدي بالقارئ الى التحرر من سلطة هذا النسق، بعد أن عرته الكاتبة وأسقطت ورقة التوت التي كانت تستره. فعلًا إن الناظر إلى عادات الأفراح والأحزان في المجتمع العربي ليجدها مظاهر لا تمت إلى الحضارة ولا إلى الإسلام ولا الى القيم الحميدة بأية صلة، وإنما هي سلاسل يكبل بها أفراد المجتمع أنفسهم، ويدفع مقابل ذلك المال والوقت والراحة.

إن نسق اتباع العادات في نظرها يعني إلغاء العقل والمنطق والقيم الحميدة، ولعل خير مثل يمكن أن نمثل بها على هذه الحقيقة: "الجندي" الذي لا يفرق بين الأبرار والأشرار في حالة الحرب؛ لأنه واقع تحت نسق ثقافي يُغرس فيه أثناء التدريب العسكري والتوعية الثقافية، وهو نسق تنفيذ الأمر مهما كان مسيئًا، حيث يقال له: "نفذ الأمر ثم تظلم" هذا النسق هو الذي يصنع منه عبدا أو آلة جامدة لا تفكر ولا ترحم، ولا لها أي قرار، تقول الكاتبة وهي تخاطب طفلًا في عمر الورد، يحلم أن يكون عسكريا في مقالة "أنا والطفل" من كتاب "ظلمات وأشعة": "سوف تقبض على السيف والحربة وتطلق النيران من أفواه المدافع، سوف تفتك بحياة البشر أشراراً كانوا أم أبرارًا... وعيناك الجميلتان سوف تكونان عيني جلاد يرى الدماء والدموع دون أن يلين أو يرحم... وقلبك ترى كيف يكون قلبك الذي لا يدرك اليوم ولا يشعر إلا قليلا؟"(٢٣). إن الكاتبة تعرف أثر النسق الثقافي الذي ربي عليه الجندي، الذي يطمس ويلغي إنسانيته ويحوله إلى وحش كاسر، يقوده أسياده ويستخدمونه للفتك بأعدائهم كانوا أشرارًا أم أخيارًا، والكاتبة تريد أن تغرس نسقًا جديدًا يقوم على الحرية والاختيار والتمييز والتأمل؛ فليس كل الأوامر تنفذ، وهو ما

سعى إليه الشيخ الإمام أحمد بن حنبل حين سمع أحد الجنود الذين كانوا يجلدونه وهو يقول له معذرا: "يا شيخ اعف عني فأني مأمور" فقال الشيخ: "بك وأمثالك يتقوى الظلمة"! فهذا التعبير يحمل نسقًا ثقافيًا إيجابيًا يدعو إلى التمييز، والحرية في اتخاذ القرار الإيجابي، الذي يكون فيه صلاح الفرد والجماعة، ورفض الاشتراك في الظلم والشر.

وتتضح المغالطة وتهشيم العقل والحرية في الاختيار للأنسب في قول القادة العسكريين: "نفذ الأمر ثم تظلم" الأمر الذي يجعله نسقًا ثقافيًا مضمرًا، يوجه العسكري لتنفيذ أي أمر تحت ذريعة الطاعة للمحافظة على الوطن والتضحية من أجله؛ حتى وإن كان في تنفيذ الأمر إساءة للجندي، فيجب أن ينظر إليه الجندي نظرة عادية، بالرغم أنه نسق قائم على الغلط، والتظلم شرع في الدين والشريعة والقوانين الوضعية لمنع الشر من الوقوع، فإذا وقع فما الداعي للتظلم!

كما نجد هذا النسق في شعرها في قصيدة كآبة من ديوان: "أزهار حلم" الذي اصدرته بالفرنسية ١٩١١، ثم ترجمته إلى العربية تقول: وأنت أيتها الوريقات الساذجة التي بذلت الجهود للتخلص من العبودية/ إنك لن تظفري بما شاقك عندنا من مظاهر الحرية(٢٤).

فالسطران مترعان بنسق الحرية، فالشاعرة مي هنا تضع أمام القارئ المتأمل مبدأ مهمًا من مبادئ الحياة، وهو مبدأ الحرية التي لا تقتصر عن الإنسان، بل يتوق إليها الجماد والحيوان والنبات، فالكل يرفض القيود ويسعى إلى التحرر، والسطر الثاني يوحي للإنسان أو المتلقي لخطابها الشعري أن يصنع نفس المحاولة التي حاولتها الوريقات الساذجة، أن يحاول أن يثور على واقعه واقع العبودية، الذي يكبله بأشكال مختلفة من القيود، وهي في كل ذلك تسعى إلى صناعة نسق ثقافي يقوم على التحرر من الواقع المكبل بالقيود.

ومن أهم العبارات الصانعة للنسق الثقافي الإيجابي عبارة: اقترحت علي مجلة "الهلال" كتابة فصل عن "المواكب"، وإني لأجد مشقة في تلبية كل اقتراح؛ لأنه يذكرني نوعًا بالفروض المدرسية التي يُقيّد التلاميذ بموضوعاتها المعينة"(٢٥). إن هذه العبارة في حد ذاتها عبارة نسقية؛ لأنها تدعو ضمنيًا إلى حرية الكاتب وعدم إملاء الاقتراحات والطلبات عليه، بل تتجاوز حرية الكاتب إلى حرية الإنسان، وأن يكون حرًا كالطير لا يقيده أمر ما، وقد استطاعت الكاتبة أن تجعله نسقًا ثقافيًا من خلال اعتماده على رصيد شعوري وعاطفي، متوافر لدى القارئ من خلال معاناته أثناء طفولته في المدرسة وتبرمه من أوامر أساتذته، وهي بذلك تخاطب عاطفته لتمرير هذا النسق، فتهمس في أذنه أنه لم يعد تلاميذًا، وجعله موجهًا لسلوكه في الحاضر والمستقبل. وتضيف إلى ذلك أمثلة واقعية من حياة الأدباء المشهود لهم بالكفاءة، وكأنها توحي إلى القارئ أنهم ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا لأنهم رفضوا الاقتراحات والأوامر، وبقوا يكتبون على سجتهم. المثال المطروح هو جبران خليل جبران تقول الكاتبة رواية عن نسيب أفندي: "إن مؤلف المواكب كان متمرداً في كل حياته الكتابية، يعرف ذلك من طالع كتبه وأهمها: "الأرواح المتمردة" و "الأجنحة المتكسرة"، فهو يقف وأبطاله وبطلاته متمردين لا على عدو ظاهر حقير بل على الحياة نفسها"(٢٦).

فالكاتبة تجيد اختيار الاقتباس الذي يخدم فكرتها، للمساهمة في إنتاج نسقها عن الحرية والتغيير؛ إذ نجد أن المقتبس متخم بالجمل النسقية وأبرزها جملة: "فهو يقف...متمردًا... على الحياة نفسها" فهي جملة نسقية اكتسبت

ذلك من المبالغة في وصف تمرد الكاتب وأبطال رواياته وقصصه، وفي ذلك إكساب الجملة القدرة على دفع القارئ دفعًا إلى بؤرة التمرد على كل ما ينال من عزته وكرامته وذلك بإيحائها العميق لعاطفته وفكره.

إن الكاتبة في كثير من عباراتها تؤسس لتأسيس نسق ثقافي يدعو إلى الحرية والتغيير وبخاصة حرية الاختيار، هذا النسق المسلوب والمصادر، ومن أجل ذلك تعمق الكاتبة عباراتها النسقية بأساليب بلاغية مؤثرة في القارئ، حتى تستطيع أن تعمق فيه الإحساس بضرورة صد ما يؤدي إلى انهيار حريته تقول محاولة وخز القارئ وحثه على سلوك الأحياء لا الأموات في مقالة "مساجلة الرمال" مجلة الرسالة: "قضي علينا بأن نكون دومًا في حكم الموتى، وقد حرمنا نعماً يجنيها غيرنا في جنة الأرض"[٢٧]، فالعبارة طافحة بأساليب بلاغية لإقناع القارئ أن يغير من حياته، ويستيقظ من غفلته، من هذه الأساليب: بناء الفعل للمجهول للدلالة على ضعف المخاطب في نظر نفسه، فقبل أن يتحكم في مصيره مخلوق ضعيف مثله لا يستحق الذكر، ورسمت صورة لغرض تفسير وتوضيح هذا المصير، فبدأ المخاطبون موتى لا قرار لهم في شيء، وصورت نتيجة ذلك في الحرمان الذي يعانيه المخاطب الذي رمزت له بالطرد من جنة الدنيا، وكأنه في نظر أسياده شيطان لا يستحق نعيمًا ولا رحمة. وتعقب ذلك بإرشاد المخاطب أن يثور على وضعه بالاستفهام الإنكاري التوبيخي "أنكون في حكم الموتى ونحن نشتاق ونتعذب؟"[٢٨]، كل ذلك لتأسيس نسق للتغيير ونبذ نسق الرضوخ للسلطة الفاسدة، وتستغل الكناية (ونحن نشتاق ونتعذب) التي تثبت أن المخاطبين أحياء قادرون على التغيير؛ فلا ينطبق حكم الموتى عليهم.

٢- نسق الثورة والتمرد

هناك في مقالات مي بعض الأنساق التي قامت بإنتاجها؛ لتحمل القارئ على الثورة والتمرد، ومن ذلك قولها في مقالة "اليقظة": "نعم في ذلك اليوم من أواسط شهر مارس ١٩١٩، وقد عبق الهواء ببشائر الربيع، ونورت البراعم الزاهية على الغصون، وسرت في الأجساد نفحة التجديد كرسول من حياة الأرواح، في ذلك اليوم الغني بتنبه الأرض بعد هجود الشتاء، استيقظت أمة الوادي الجاثم بين البحر والصحراء... استيقظت الأمة وهتفت، فإذا في صوتها غضبة الأسود ومفاداة الأبطال وعزم الرجال ومرح الأطفال وحنو النساء وصدق الشهام"[٢٩].

ماذا تريد الكاتبة بهذه العبارات النسقية؟ هل تريد وصف الربيع وأثره؟ الحقيقة أن الكاتبة تصنع نسقًا ثقافيًا من خلال الرؤية العميقة لفعل الربيع في الأرض، نسقًا ثقافيًا يؤدي إلى اتباع سنة الكون، الكون سنته في رؤية الشاعرة الكاتبة التمرد والثورة على الجمود والفناء والقحط والظلم، الشتاء في رؤية الشاعرة ظالم؛ لأنه أفسد الحياة، والربيع ثائر؛ لأنه أعاد الأمور إلى نصابها، كأن الكاتبة تقول للقارئ انظر إلى الكون، إنه تأمرك بأن تغير نفسك ومن حولك، لا تقف عند المعتاد، فأكسبت عباراتها بذلك سمة النسق الثقافي الذي يسير بالإنسان نحو غاية، باعتمادها على دعامتين الأولى طبيعية من تأملها بما يصنعه الربيع في الأرض، والثانية إنسانية من خلال تأملها في ثورة ١٩٩٩ في مصر، وما صنعت من هز لنخلة مصر الساكنة، وما فعلته بوجدان الأمة من تغيير، فمن ذا الذي ينكر ما يفعله الربيع كل عام؟ ومن ذا الذي يكذب ما فعلته ثورة ١٩١٩ من تغيير في حياة الشعب المصري؟ وهكذا تحول كلامها السابق إلى نسق ثقافي بما له رصيد من المشاعر والأفكار التي صيغت بطريقة بلاغية مقنعة.

٣- نسق المسئولية

بالرغم من أن الكاتبة قد حاولت صنع نسق الحرية ونسق التمرد، إلا إنها كانت على وعي بأن النسقين بحاجة إلى نسق ثالث، هو نسق المسئولية، فالحرية المطلقة تؤدي إلى خراب الأمم، ولذا حاولت الكاتبة أن تغرس في القارئ نسق المسئولية لضمان الحرية للجميع تقول: "وفي وسط هذا النظام القاهر نرى الإنسان وحده متصرفاً في أفعاله، بشرط أن يخضع للقوانين المحيطة به والنافذة فيه، هو حر بشرط أن تنتهي حريته حيث تبتدئ حرية جاره"(٣٠). إن الكاتبة في العبارة السابقة تصنع نسقًا ثقافيًا من خلال الإقناع بأن الحرية المقيدة بالمسئولية هي صفة الحرية الإنسانية السوية، وفي ذلك تعريض بأن الحرية المطلقة هي حرية الحيوان، وهي بهذا التعريض الفني ترغم القارئ على الإيمان بهذا النسق، حتى لا يجد نفسه أمام نفسه والآخرين حيوانًا من الحيوانات المفترسة، التي تقوم على الحرية المطلقة في حياتها، إن الكاتبة حريصة على صناعه نسق المسئولية في حياة الإنسان حتى يضمن حياة سعيدة له ولغيره من الناس.

٤- نسق الإخاء الإنساني

يعد موضوع الإخاء الإنساني من أهم الموضوعات التي حاولت الكاتبة أن تصنع منه نسقًا ثقافيًا، ففي مقالة: "الإخاء" التي وردت في كتاب: "كلمات وإشارات" نجد إصرار الكاتبة على رغبتها في تجسيد الإخاء الإنساني نسقًا ثقافيًا موجهًا حياة القراء، وهي في سعيها ذلك تبدأ بصناعه النسق بتقرير جملة نسقية من الجمل البديهية، وهي قولها في مقالة "الإخاء": "إن كلمة الإخاء التي ينادي بها دعاة الإنسانية في عصرنا، ليست ابنة اليوم فحسب بل هي ابنة جميع العصور"(٣١). هذه هي أول جملة نسقية وردت في المقالة، فحواها سد الطريق أمام القارئ لمعارضة رؤيتها، لأنها جملة بديهية، ولأجل ضمان تأثيرها في صورة أعمق، أخرجتها في صورة إجابة على شاك متخيل، يظن أن الإخاء قضية معاصرة، ومن ثم تحولت الجملة إلى جملة نسقية امتلكت صفة التجذر مثلها مثل أي نسق ثقافي.

ثم تنتقل إلى القول إن التصرفات التي خرقت قيمة الإخاء الإنساني ليست سوى حالات شاذة طارئة تقول: "لو أدرك البشر أخوّتهم لما وجدنا في التاريخ بقعاً سوداء، تقف عندها نفوسنا حيارى. لو أدرك البشر أخوتهم لما رأينا المطامع تدفع الأمم القوية إلى استبعاد الأمم الضعيفة، لو أدرك البشر أخوتهم لما سمعنا في اجتماعاتنا كلمات جارحات يجازف بها كلٌّ في حق أخيه"(٣٢). أن العبارة غنية بأدوات صناعة النسق ابتداء من التكرار الذي لوّح بأهمية الإخاء الإنساني، ثم باستخدام أداة "لو" لتمني مرغوب، ومن ناحية ثانية غرضها الحث والإرشاد على جعل هذا المحبوب مجسداً في أرض الواقع، ثم هي لا تغفل عن إبراز الشيء المنافي للإنسانية لتعمق من حجم التعصب للإخاء الإنساني، فليس هناك سوى طريق واحد إما اتباع الإخاء الإنساني، ومن ثم ضمان الحرية، أو سلوك الجلافة والشدة وإقصاء الآخر، وهي عبارات تجعل الإنسان السوي يختار المضيء لا المظلم.

ثم تمعن في صناعه هذا النسق الإنساني الذي يعيش الناس كلهم تحت تأثيره دون تمييز ديني فتقول: "فتلقي بين المتناظرين سلاماً وبين المتدينين تساهلاً، وتنقش محامد الناس على النحاس، أما العيوب فتخطها على صفحة الماء، تساعد المحتاج ما استطاعت، بلا تفريق بين المحمدي والعيسوي والموسوي والدهري... إنما الإخاء يزيح بيده الشفيقة

الشوك عن الزهرة المتروكة، ويرفع لها جدارنا تقيها ريح السموم الفتاك"[٣٣]. فهذه القطعة الأدبية البليغة التي غرضها صناعة نسق ثقافي إنساني يقوم على الإخاء الإنساني بين أنواع الطوائف، كان لها تأثير كبير؛ لأن الكاتبة حاولت صناعتها صناعه نسقية معتمدة على فنون البلاغة، تأتي على رأسها الاستعارة؛ فالكاتبة تدعو إلى الاهتمام بالمحاسن بين الناس المختلفين، ومن أجل ذلك طلبت أن تُنقش على النحاس؛ للإيحاء بالرغبة في تخليدها ونشرها وترجمتها واقعًا، وجعلها شعارًا جماليًا يتبع، وجعلت من العيوب خيوطًا مائية أوهى من خيوط العنكبوت، وهو الخط على الماء الذي لا يكاد يترك أثرًا، وهذه الصورة الفنية قادرة على استمالة القارئ نحو فكرة الكاتبة النسقية، واستحسانه لمحاسن الإنسانية، وتجسيدها في أرض الواقع وتشربه للفكرة، ثم لا تلبث أن توطد الفكرة مرة أخرى في ذهن القارئ ببيان أثر الإخاء في المحافظة على الإنسان، فجعلت للإخاء يدًا شفيقة تحنو على الإنسانية التي رمزت إليها بالزهرة، وهو تصوير الحالة في النفس حتى يكاد القارئ يرى ذلك، فنالت الفكرة سمات النسق الثقافي الذي يخاطب وجدان القارئ وفكره و يجعلهما تحت سيطرته، ولا شك أن مثل هذا النسق الثقافي تحتاجه الأمة؛ وبخاصة اليوم بعدما صار الإنسان لا يهتم بالإنسان؛ بل صار بعمله الوحشي يبرهن على صحة مقولة الفيلسوف الإنجليزي هوبز: "الإنسان ذئب يأكل أخاه الإنسان"[٣٤]؛ وخصوصًا الإنسان الغربي الذي تنطبق عليه هذه المقولة تمام الانطباق. وبدأت الكاتبة بأبناء الديانة الإسلامية لمعرفتها العميقة أن الإسلام دين الإنسانية؛ فهو ينظر إلى الناس كلهم نظرة رحمة وود. وأتباعه هم أحرص الناس على الأخوة الإنسانية، وهم الأقرب من كل هذه الطوائف إلى تطبيق مبدأ الإخاء الإنساني، كما تدل على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ وقول الرسول صلى الله عليه وسلم" إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب"[٣٥].

وتقول مؤكدة ما سبق من كلامها: "لو أدركوا إخوتهم لما رأينا الشعوب مشتبكات بحروب هائلة صرعت فيها زهرة الشبيبة" وهي كما ترى جمل نسقية عمدت المؤلفة الى تأليفها بطريقة ضمنت الإقناع بطريقة التمني والتصوير، فالتمني بأداته "لو" وهو تمني مرغوب في تحقيقه في أرض الواقع، لأنه من الأشياء التي تتحقق، وكأن الكاتبة تضع الأمور في نصاب القارئ، فهو القادر على تجسيد ما يتمنى في أرض واقعه، ثم عن طريق التصوير الذي وظيفته إعادة تشكيل العالم بما يتناسب مع النسق الثقافي المراد طرحه في الواقع، وهو تصوير الشبان بالزهرات تمتص طاقاتهم الحرب، وفائدة هذا التصوير إظهار المفارقة المرة في صورة المحسوس الذي يجعل النفس تشعر بالامتعاض والمأساة، حين تجد الأمة تودع شبابها إلى الفناء، وهم في عمر الجمال والحيوية والتفتح، وهم من عوامل البناء والتقدم، وهم ركيزة أساسية للمجتمع لتقدمه ونهضته، ومعنى ذلك أن الأمة سيصيبها بموتهم الضعف والخور والفقر والعوز والقبح، وبذلك تمت للكاتبة صناعة نسقها الثقافي بنظرة جادة متأمله لا يعتريها الانفعال والسطحية.

وفي مقالة "اليقظة" تؤكد هذا النسق الإنساني بقولها: "وتمشت روح النشوة إلى الضيف والنزيل، فأذابت ما بين الأجناس والشعوب والمذاهب من جليد"[٣٦]. نرى النسق الثقافي القائم على الإخاء الإنساني، يطل برأسه عبر صيغة جمالية، يجعل من الإخاء وسيلة خلاص وحيدة للبشرية، فقد جاءت العبارة السابقة في معرض وصف يقظة الإنسان

لأجل حريته، فالإنسان في كل مكان يسعى إلى الحرية، فلماذا لا تكون الحرية هي شعار الجميع للإخاء؟ وهي النار الهادئة الدافئة المشتهاة التي سوف تذيب الفوارق الجليدية بين الناس.

لاحظ أن النسق في صناعته قد قام على أعمدة من البلاغة: التشخيص في: "تمشت روح النشوة"، وتجسيد ما بين الشعوب من اختلافات بالجليد، إنه خطاب نسقي قادر على التغلغل في وجدان القارئ، وسوقه إلى دفء المشاعر الأخوية، حيث العلاقات الإنسانية، بدلًا من صقيع المشاعر. ومن أجل ذلك قدمت الكاتبة أمثلة على محاولة بعض الحضارات تقديم أهمية كبيرة للإخاء لتوطيد هذا النسق، من ذلك حضارة الإسلام كما في مقالة: "لماذا تبقى العربية حية "فقد رأت" أن القرآن قد أوجد دينًا عربيًا ودولة عربية و أحكامًا عربية وآدابًا عربية، صارت كلها أجزاء قومية واحدة، ربطت شعوبًا لم تكن العربية لغتها"[٣٧]، فهي بهذه العبارة تؤسس لنسق ثقافي يشير إلى أن الإسلام سن طريقاً للإخاء الإنساني هو طريق اللغة، ومن ثم فهي تشير بطريق غير مباشر، أن اللغة العربية وسيلة من وسائل الإخاء الإنساني، فيها تذوب كل الفوارق وهو ما كان واقعًا في عهد المسلمين، فقد عاش النصراني واليهودي والمسلم والمجوسي والدهري في دولة مجتمع إنساني واحد، كلٌ يعلم ما له وما عليه في ظل عادلة دولة الإسلام. والدليل على أن الإسلام هو دين السلام والأخوة الإنسانية: أنه يوم كان حاكما للعالم لم يأذِ أي إنسان من غير دينه، ما دام لم يحمل السيف ضده، وهذه الحقيقة تعرفها الكاتبة مي والعلماء والمفكرون المعتدلون من غير المسلمين، وكلهم يقول لو كان الإسلام كما يتصوره أعداؤه ما بقي يهودي أو نصراني أو أي منتسب لملة أخرى حيا على وجه الأرض، بل بلغت رحمة ورأفة المسلم إلى المحافظة على حياة الحيوان؛ فضلاً عن حياة الإنسان. روي: "أن عدي بن حاتم خرج نزهة إلى بستان ثم عاد إلى منزله فوجد نملة قد علقت بثيابه فقال: لقد أبعدنا عليها المسير ثم حملها وعاد بها إلى البستان الذي كان فيه!!"[٣٨] ولا يُستغرب هذا؛ فالمسلم فهمه للإخاء أعم وأشمل، فهو يرى أن كل ما في الوجود أخ له في الخلق والعبودية لله، ومشارك له في الحياة.

ولا تقف الكاتبة عند هذا الحد في توطيد نسق الإخاء، بل تتذكر زاوية مظلمة من حياة الإنسانية تعمد الى تبصير القارئ بها، ليحاول عتق نفسه وأبناء جنسه، والتمكن من تثبيت هذا النسق الإنساني، هذه الزاوية هي زاوية الحرب، التي تعد سبة في جبين البشرية المشرق، سبة سوداء قبيحة في غرة الإنسانية، عمادها الدمار والفناء بسبب المكيافلية الدنيئة، تقول الكاتبة في مقالة "فضل الآداب": "السيف قاهر معاقب أما الفكر فمثقف ملطف، السيف لغزو الممالك داحراً كتائب وجحافل، ويشهر الحروب واضعًا بين الإنسان والإنسان جدران حقد كثيفة، أما الفكر فلسيفه خفة الهواء ولطف النسيم"[٣٩].

إنها عبارات مترعة بالنسقية، موجهة للقارئ دون إفصاح، تضع أمام القارئ صورتين: صورة الفكر الناعمة الداعمة للإخاء الإنساني، وصورة الحرب والقوة الخشنة المشجعة لانهيار الإنسان، تبني العبارة عبر المقابلة التي تظهر للقارئ في الجانب الأول: الثقافة واللطافة، ويظهر الجانب المقابل في الغزو والسلب والحقد، وتمعن في استخدام التجسيد لاستمالة القارئ، وتعمل على كسب العبارات سحرية التأثير في جعل الفكر مجسدًا في صورة الجمال واللطف والسهولة، وفي تجسيد الحرب في صورة القبح والشراسة المتمثل في بناء جدران الحقد الكثيفة بين أوساط

البشر، وبذلك يستطيع القارئ أن يختار الجميل دون القبيح، والسهل دون الصعب، والحب دون الحقد، ويتحول النهوض بالإنسانية سبيلاً له وواجبًا يتعين العمل من أجل تحقيقه.

٥- نسق التصدي لتهميش دور الاسلام في المحافظة على الإنسانية

إن محاولة الكاتبة تغيير نسق الكراهية للفاتحين المسلمين، تجلى في أكثر من مقالة كما في مقالة "مساجلة الرمال" تقول: "فتى الصحراء! فتى الصحراء الذي اصطفاه ربه ليحمل الكتاب، فهجر دياره، وسلاحه كتاب فغزا به العالمين! الفاتح الذي لا يشبه فاتحا! إنه لم يغز البلدان والأمصار وكفى، بل غزى القلوب بسره، وفتح النفوس بسحره، يوم خروجه من الديار هو بدء تاريخ الهجرة"(٤٠) ثم تقول: "فأخرج الخصب الخصيب من ديار القحط والحرب"(٤١).

إن الكاتبة واعية لدور الإسلام وبني الإسلام وجند الإسلام في التغيير لرفعة الإنسانية، ومن أجل ذلك ثارت على النسق الثقافي المتداول في الغرب، وعند بعض المثقفين العرب، الذين يرون أن الإسلام انتشر بالسيف، وهو نسق ثقافي قديم أول من صنعه المنافقون حين قالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ ﴾، ثم تعمق النسق في وجدان الأعداء وتجذر، والكاتبة رغم أنها مسيحية تدعو في الفقرة السابقة إلى إحلال نسق الحقيقة، وهو أن الإسلام جاء بالخير للبشرية، وهي من أجل ذلك عملت على صناعة فقرة نسقية تقوم على التأثير الجمالي في نفوس القراء، فاستعملت أساليب جمالية منها: النفي المطلق لوجود فاتح كمحمد صلى الله عليه وسلم في القديم والحديث، ثم سردت صفات هذا الفاتح، وإن كانت لم توفق حين زعمت أنه غزا القلوب بسحره، ولو قالت بعدله وأخلاقه النابعة من كتاب ربه؛ لأصابت كبد الحقيقة، مع علمها أن غرضه الأول والأساس هو غزو القلوب قبل غزو البلدان لإسعادها، وهو نمط بلاغي يقوم على تعميق الوعي بهدف الإسلام في تطهير القلوب من الكراهية، والحقد والحسد، وملئها بالحب والتسامح والحياة، ثم تجعل محمدًا صلى الله عليه وسلم هو الفاتح للبلدان والأمصار، وهو نمط بلاغي يوضح أن قادة الإسلام الفاتحين كانوا يهتدون بنور محمد صلى الله عليه وسلم في الفتوح، فكأنهم هو نفسه، وأخيرًا نجد الجملة النسقية التي تكذب من قال: إن الإسلام جاء لغزو الأمم وقهرها وأخذ الجزية منها: "أخرج الخصب الخصيب..." فتم صناعة نسق خير الإسلام على الأمم.

٦- نسق أهمية العلائق الاجتماعية

ومن وظائف إنتاج النسق الثقافي عند مي محاولة جعله شيئًا بديهيا في ذهن القارئ، ومن ذلك القول بأهمية العلائق الاجتماعية في ترسيخ الحياة، فهي تعلي من شأنها، حتى جعلتها نسقا ثقافيا يؤمن به القارئ، ففي مقالة "فضل الآداب" من كتاب "كلمات وإشارات" تقول: "ولولا تلك العلائق ما اختلطت الأقوام، ولا تمازجت الأجناس، ولا تكونت المدينة، ولظلت الجماعات في وحدتها الاثنوغرافية وانقطاعها الحيوي بعيدة بعضها عن بعضها، ولو كان ذلك لفنيت العشائر وانقرض النوع في زمن قصير"(٤٢).

إن حَبْك العبارة بطرائق أسلوبية بلاغية يحولها إلى عبارة نسقية مؤثرة في نفس القارئ -كما قلنا مرارًا- ويجعلها تستقر في وجدانه، ومن تلك الأساليب البلاغية المقنعة التي تجعل القارئ يؤمن بأثر العلائق الاجتماعية، في حياة

الجنس البشري إلى اليوم وإلى ما شاء الله وتطوره في شتى المجالات، استعمال أداة "لولا" التي تقصر وجود واستمرار الجنس البشري على وجود العلائق، واستخدام التكرار لتثبيت ذلك، ثم افتراض حالة انعدام العلائق التي عكست عالم التفتت والانقراض على مدى فترة زمنية قصيرة، فمثل هذه الأساليب يجعل من العلائق الاجتماعية والتعصب لها نسقًا ثقافيًا يدفع الناس نحوها لتستقيم الحياة وتتطور.

٧- نسق خطورة التعصب

كما ركزت الكاتبة على الأنساق الثقافية التي يسهم المجتمع في تعميقها مثل: نسق التعصب الثقافي؛ إذ تقول في مقالة: "أنا والطفل" مخاطبة الطفل: "عما قريب تفهم ما هو التعصب الجنسي والعلمي والعائلي"(٤٣)، وهي بذلك تشعر القارئ إلى خطر هذا النسق المتغلغل منذ القدم في اللاشعور الجمعي، وتعرّض بدور التربية الأسرية والمدرسية والإعلامية في تمرير هذا النسق الخطير، وهي بذلك تدعو الى التنشئة البعيدة عن هذا النسق، وسوف نرى أنها تحاول أن تعيد تشكيله في نسق الإخاء؛ بالدعوة إلى التسامح والإخاء، ونبذ التطرف والتعصب، وهو دور أصيل في عرف المثقفين والمفكرين ومن قبلهم الأنبياء والمرسلين.

٨- نسق الرحمة والعطف

حاولت الكاتبة أن تصنع أيضا نسق الرحمة والعطف؛ وبخاصة بالأطفال، ومن ذلك قولها في مقالة "أنا والطفل": "يد الأطفال عجيبة حلوة كابتسامتهم، أخذت يد روبرت اقرأ فيها ما خطته يد الأقدار، يد مربعة كبيرة الإبهام"(٤٤)، وتقول في مقالة "بكاء الطفل": "صغيرك يناديك فلماذا لا تجيبين يا أم الصغير؟ لستِ بالعليلة؛ لأني رأيتك منذ حين تميسين بقدك تحت قبعتك، والجواهر تطوق العنق منك، أنت صحيحة الجسم فلماذا لا تسرعين؟ ألا تحرقك دموع الطفل الذي لا ترين؟ ألا يوجعك الشهيق الذي لا تسمعين؟ عودي من نزهاتك الطويلة وزياراتك العديدة وأحاديثك السخيفة، عودي واركعي أمام الصغير واستميحيه عفوًا. لقد خُلقت امرأة قبل أن تكوني حسناء، وكيفتك الطبيعة أمًا قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة. تعالي اسجدي أمام السرير سرير الصغير:.... اسجدي أمام السرير، وناغي الصغير، إن دموع الأطفال لأشد إيلاما من دموع الرجال"(٤٥).

إن هذه العبارات تتوسل ببلاغة التأثير؛ حتى تتحول إلى جمل نسقية قادرة على التغلغل في نفسية القارئ، ركزت في المقالتين على الطفل في المقالة الأولى عن موقفها هي من الطفل، فرسمت ديباجة استطاعت أن تستشعر الطفولة في أوج صفاتها، بما يجعل العبارة تتحول إلى نسق ثقافي يجعل الرحمة والعطف ضرورة للأطفال، فكانت قائمة على التصوير الموحي المؤثر "يد الأطفال عجيبة حلوة كابتسامهم(٤٦) إن التأمل في حيز هذه الصورة ليجعل الإنسان أي إنسان يكتسب اتجاهًا نفسيًا وفكريًا، هو النظر إلى الأطفال ككل نظرة واحدة، لا فرق بين أبيض وأسود، ضعيف وقوي، حسيب أو وضيع، كلهم ينظر إليهم سواء، وهذا فعل النسق الثقافي، وقد اكتسبت ذلك من خلال إفراد "يد" وجمع طفل فكأن الأطفال لديهم يد واحدة فقط لا تتعدد ولا تتنوع ولا تتباين، وإنما هي يد واحدة جميلة كالابتسامة. ولقد نجحت الكاتبة في تعميق نسق العطف على الأطفال حين نقلت القارئ برمزية هذه الصورة التي تدرك بحاسة اللمس، فنقلتها إلى حاسة البصر، التي تعكس مدى الشعور بالسعادة والبهجة، فحين تُلمس يد الطفل

الناعمة، لا تجد ما يعبر عن تلك السعادة والبهجة التي يشعر بها اللامس، إلا برؤية الابتسامة؛ إن التعبير عن ذلك بالافتراز يوحي بدرجة كبيرة جدًا من الشعور بالبهجة والراحة، وعلى ذلك فالطفولة منجم جمال وسعادة ورقة، وتحتاج إلى الاهتمام والرعاية والمحافظة، وهو ما تريده الكاتبة من القارئ ألاّ يهدر هذه الثروة. مع تحفظي على استعمالها لفظ (الطبيعة) في قولها (كيفتك الطبيعة)؛ فالله وحده هو الذي جعل منها إنسانًا وامرأة وأما، وليست الطبيعة، كذلك ألفاظ (اركعي واسجدي) فهي ألفاظ خاصة تُعمل لله تعالى فقط، حتى ولو قصدت المجاز.

٩- نسق الإغراء السياحي للأوطان من خلال تمجيد الأنوثة

الإغراء السياحي او الدعاية السياحية عن طريق الأدب هو موضوع ما يسمى الأدب السياحي، وهو أدب غرضه لفت الأنظار إلى معالم السياحة في البلدان، والكاتبة في أعمالها قد عنيت بهذا النوع من الأدب، لكن اللافت في كتاباتها امتلاكها سمات النسقية الثقافية ففي مقالة: "رحلة حيفا – يافا" يتحول وصف المدينتين إلى نسق توجيهي، يدفع القارئ لزيارة هاتين المنطقتين تقول في مقالة: "رحلة حيفا – يافا": "كما تسرع الموجة الصغيرة إلى الاختباء في حضن إمها، بعد مداعبة الشاطئ، كذلك تجلس حيفا في سفح الكرمل، كأنها بعد غسل بيوتها في البحر ابتعدت وارتفعت خوفًا من البلل"[٤٧]، إن الكاتبة تبرز حيفا من خلال صفات الأنوثة الجمالية، وأنوثة الأمومة على وجه الخصوص، لا من حيث جمالها الطبيعي مباشرة، فإذا نحن أمام ربة بيت كاملة الأوصاف: جمال وفتنة ورحمة وعطف وكرم ورعاية، وطفلة شقية تلعب ثم تعود إلى حضن أمها؛ إن الكاتبة بهذا تريد أن تنقل الى القارئ معادلة فنية، وهي أن الأنوثة مساوية للجمال والفتنة والعطف تحت غطاء وصف الأرض البلاغي الشاعري، وفي الوقت نفسه يعد الوصف دعاية إعلامية سياحية لكل من أراد أن يعرف الجمال على حقيقته، فعليه بزيارة حيفا، حيث الجبال والشاطئ الجميل والبحر والطيور، أضف إلى ذلك استنشاق عبق التاريخ: "صيدًا العظيمة التي أغرت الغزاة والفاتحين بجمال موقعها ووفرة ثروتها"[٤٨]، إن التركيز على التصوير بسمات المرأة هو آية النسق الثقافي المغمور تحت الصورة، الذي يخاطب عاطفة وفكر القارئ فيقنعه أن الأنوثة جمال وإغراء، وعاطفة وكذلك صيدًا، فيولد لديه الرغبة الملحة لزيارة صيدًا التي أغرت الأمم بفتنتها، كما تجعلنا الصورة نتصور عالم الذكورة عالما أشبه بعالم المغامرة أو المخاطرة، أو أن جنس الذكورة جنس مخدوع، وفي كلمة أخرى، تصورهم الصورة وكأنهم فراش تسقط بنفسها في النيران بسبب إغراء هذه النار لها، ألا توحي الصورة بالسخرية من الذكورة حين تخاطر بنفسها بسبب إغراء الاستيلاء لا المعايشة السلمية؟

النتائج:

١- حرصت الأديبة على صناعة وإنتاج النسق الثقافي الذي يضمن بقاء الحياة وتطورها.

٢- اعتمدت الكاتبة في صناعة النسق الثقافي على وسائل بلاغية وحجاجية.

٣- كشفت دور التربية والإعلام في تمرير الأنساق السيئة في ثقافة المجتمع.

٤- استفادت الكاتبة من الأحداث السياسية والظواهر الطبيعية في صناعه النسق.

٥- أثبت البحث أن النسق الثقافي يأتي إيجابيًا كما يأتي سلبيًا.

ويوصي البحث الباحث في النقد الثقافي أن يدرس مقالات الكاتبة مي زيادة؛ فهي كثيرة، وذات أنساق إيجابية متعددة، وما كان دوري هنا سوى فتح باب هذا المنجم الغني بالأنساق الإيجابية.

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع:

أولًا– المصادر:

١– مي زيادة "بين الجزر والمد" مؤسسة هنداوي، مدينة نصر ٢٠١٢

٢– مي زيادة "سوانح فتاة" مؤسسة نوفل

٣– مي زيادة "ظلمات وأشعة" مؤسسة هنداوي، مدينة نصر

٤– مي زيادة "كلمات وإشارات" ج١ مؤسسة نوفل

٥– مي زيادة "كلمات وإشارات" ج٢ مؤسسة نوفل

ثانيًا– المراجع:

١– أحمد قاسم أسحم "الأدب المقارن" أوراق للأعمال الورقية، تعز ٢٠١٤

٢– أحمد قاسم أسحم "انعكاس الواقع والثقافة في رواية بلزاك (المتصيدة)، آداب جامعة المنصورة، مصر العدد (٥٠) يناير ٢٠١٢.

٣– عبد الله الغذّامي "النقد الثقافي" المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠٠٥

٤– محمد رزق "النقد الأدبي الحديث" طبعة ١٩٨٨

٥– محمد عبد الملك الحوراني "النظرية المعاصرة في علم الاجتماع" دار مجد، عمان، ٢٠٠٨

الهوامش:

(١) راجع محمد عبد الملك الحوراني "النظرية المعاصرة في علم الاجتماع" دار مجد، عمان، ٢٠٠٨، ص١٧٤.

(٢) عبد الله الغذّامي "النقد الثقافي" المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠٠٥ ص١٧٦.

(٣) نفسه ص٢٥٤.

(٤) نفسه ص٢٥٦.

(٥) نفسه ص٢٥٧.

(٦) نفسه ص٢٦٢.

(٧) نفسه ص٢٦٢.

(٨) نفسه ص٢٧١.

(٩) نفسه ص٢٧٤.

(١٠) نفسه ص٢٧٤.

(١١) نفسه ص٢٧٤.

(١٢) نفسه صـ٢٧٥.

(١٣) نفسه صـ٢٨١.

(١٤) نفسه ص٢٨٨.

(١٥) نفسه صـ٢٨٩.

(١٦) مي زيادة كاتبة لبنانية عاشت بين (١٨٨٦-١٩٤١) اتقنت تسع لغات هي: العربية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية واللاتينية واليونانية والسريانية. وكتبت بعض شعرها بالفرنسية، عاشت في القاهرة، وكان لها مجلس أدبي كل ثلاثاء، يحضره أدباء وعلماء. من أهم أعمالها ديوان شعر: "أزاهير حلم" صدر ١٩١١ بالفرنسية، ثم صدر لها "باحثة البادية" "وكلمات وإشارات" و "المساواة" و "ظلمات وأشعه" و "بين الجزر والمد" و "الصحائف" مي زيادة "بين الجزر والمد –مختارات "كتاب في جريدة، إصدار مؤسسة الثورة للصحافة والطباعة والنشر، صنعاء ص٣.

ولم تتزوج على كثرة عشاقها، عاشت صقيع الوحدة وبرودة الفراغ الهائل بعد وفاة والدها، حتى وقعت أسيرة حالة نفسية صعبة، ثم توفيت في القاهرة عن عمر (٥٥) عامًا... ومن أشهر الكتب التي تتحدث عنها كتاب: "مي زيادة.. حياتها وسيرتها وأدبها وأوراق لم تنشر" للدكتور خالد غازي. اشتهرت مي بروح إنسانية جعلتها تقف إلى جانب الإنسان مهما كانت ديانته أو جنسته، وآمنت أن الإنسان خير بطبعه، ولم تشعر بخبثه إلا حين تكالبت عليها الأحزان، لذا قالت: "أنا امرأة قضيت حياتي بين قلمي وأدواتي وكتبي ودراستي، وقد انصرفت بكل تفكيري إلى المثل الأعلى، وهذه الحياة (الايديياليزم) أي المثالية التي حييتها جعلتني أجهل ما في البشر من دسائس". الموسوعة الحرة المشبك.

(١٧) مي زيادة "بين الجزر والمد" مؤسسة هنداوي، مدينة نصر ٢٠١٢ ص٢٧.

(١٨) أحمد قاسم أسحم "الأدب المقارن" أوراق للأعمال الورقية، تعز ٢٠١٤ ص١.

(١٩) مي زيادة "بين الجزر والمد" ص٢٧.

(٢٠) مي زيادة "سوانح فتاة" مؤسسة نوفل ص٦٧.

(٢١) نفسه صـ٦٧.

(٢٢) نفسه صـ٦٩.

(٢٣) مي زيادة "ظلمات وأشعة" مؤسسة هنداوي، مدينة نصر ٢٠١٢ص١٠.

(٢٤) سيرة مي زيارة، المشباك https://dorarr.ws/forum/showthread.php?t=37912

(٢٥) مي زيادة "ظلمات وأشعة" صـ٢٤.

(٢٦) نفسه صـ٢٤.

(٢٧) مي زيادة "كلمات وإشارات" ج٢ مؤسسة نوفل ص١٤٠.

(٢٨) نفسه صـ٢١.

(٢٩) مي زيادة "بين الجزر والمد" ص١٣.

(٣٠) نفسه صـ٦.

(٣١) مي "كلمات وإشارات" ج١ مؤسسة نوفل ص٨٦.

(٣٢) نفسه ص٨٨.

(٣٣) نفسه ص٩٢.

(٣٤) محمد رزق "النقد الأدبي الحديث" طبعة ١٩٨٨ ص٧٥ وراجع لمعرفة أنانية الإنسان الغربي، وعدم اعترافه بالأخوة الإنسانية: أحمد قاسم أسحم "انعكاس الواقع والثقافة في رواية بلزاك (المتصيدة)، آداب جامعة المنصورة، مصر العدد (٥٠) يناير ٢٠١٢.

(٣٥) سنن أبي داود دار الكتاب العربي، بيروت، ج٤ ص٤٩٢.

(٣٦) مي زيادة "بين الجزر والمد" ص١٢.

(٣٧) نفسه ص٢٨.

(٣٨) مجلة حراء ص٢٣ العدد ٢١.

(٣٩) مي زيادة "كلمات وإشارات" ج١ ص٩٨.

(٤٠) مي زيادة "كلمات وإشارات" ج٢ ص١٤١.

(٤١) نفسه صـــ١٤١.

(٤٢) مي زيادة "كلمات وإشارات" ج١صـــ٩٦.

(٤٣) مي زيادة "ظلمات وأشعة" ص١١.

(٤٤) نفسه ص١٠.

(٤٥) نفسه ص٢٦.

(٤٦) نفسه ص١٠.

(٤٧) مختارات "كتاب في جريدة"، إصدار مؤسسة الثورة للصحافة والطباعة والنشر، صنعاء ص١٠.

(٤٨) نفسه ص١٠.